

مقالات رأي

بمناسبة ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أضواء البيان نيوز تنشر سلسلة مقالات مولد النور للاستاذ عادل عسوم

أضواء البيان • 05-09-2024 • 11 دقائق قراءة



سلسلة (مولد النور) كاملة

4/2

(وفاة أمه آمنة بنت وهب، وهو ابن ست سنوات).

عادل عسوم

كنت ارجب في جعل الجزء الثاني من مقالي هذا عن حادثة شق صدره الشريف، اذ في ذلك التزام بالتسلسل التاريخي لحياة الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، لكنني -ولسبق الإعلان- ثم للأثر الذي تتركه وفاة الأمهات، فقد ارتأيت اسباق الحديث عن وفاة أمه، وسيكون الجزء الثالث بحول الله عن حادثة شق صدره الشريف، وللعلم فإنني حرصت بأن أعتمد دوماً على (الأرجح) من الأقوال خلال سردي لأحداث سيرة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، كما ألفت النظر بأن السياق (الحواري) بين الأم وابنها في هذا الجزء من المقال نتاج لقراءاتي المتواصلة لسيرة الحبيب منذ صغري، وهو أيضاً استصحاب ل(رؤيا منامية) عرضت لي في العام الأول من قدومي إلى مكة المكرمة مقبولا للدراسة في جامعة أم القرى، وهي سني عمر بمئاة الربيع من الزمان، فما أن وصلت حتى سألت عن مكان البيت الذي ولد فيه الحبيب محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله، وسألت أيضاً عن كل الأماكن التي تشرفت بحراك الحبيب، كدار الأرقم بن الأرقم، ومسجد الجن، ومكان الحائط الذي استند عليه الحبيب فدعى الله بعيد عودته من رحلة الطائف الحزينة، وكذلك غار حراء، وسواه من البقاع التي حفلت بنوره صلى الله عليه وآله وسلم. وعلمت بأن مكان ولادته صلى الله عليه وآله وسلم يقع شرق مبنى المسجد الحرام على شارع الغزة، وقد اقيم

مكانه مبنى المكتبة العامة، ذهبت إلى المكان راجلا بعد أدائي لصلاة الجمعة في المسجد الحرام، فوجدت باب المكتبة مغلقا، وعكفت ادور حولها وبرد شتاء مكة يفعل بي الأفاعيل، ثم عدت إلى المدخل وجلست على جانب منه داخل انحناءة في الحائط لا يصلها تيار الهواء، وإذا بي أخلد إلى نومة لم أفيق منها إلا بقرع صوت اذان العصر، وعندما نهضت تذكرت تفاصيل رؤيا منامية بدت لي كفلق الصباح!، رأيت الحبيب وهو ابن ست سنوات، ورأيت أمه آمنة، ووقرت في اذني وذاكرتي كلمات (الحوار) الذي دار بين الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم وأمّه آمنة، ولم تزل سيماء نبينا في ذاكرتي وهو طفل عليه مايشبه (العراقي) القطني الذي اعتدنا لبسه في السودان، وشعره يغطي جبهته العريضة، وعينه مغرورقتان بالدموع، وبجانبه أمه آمنة وعليها مايشبه العباءة، لكنها بلون ابيض وعليها مايشبه النقوش بلون أزرق غامق.

وتفيد أرجح الأقوال بأن عمر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كان ست سنوات عندما توفيت أمه آمنة، وابن الست سنوات كما يقول علماء التربية يكون مدركا لكل ماحوله، اذ فيه تظهر بدايات تعلم التفكير المنطقي الأوسع، ويتضح فيه تطور النمو العقلي، وفيه يسعى الطفل إلى سبر من هم حوله، ويسعى إلى تكوين الأصدقاء، ويكون تلمسه لمشاعر الأبوين والالاخال والاعمام انضج، وتتسم هذه المرحلة بالخيال المتسع. وهكذا كان الحبيب، غص الاهاب، يتيم الأب.

أرسلت آمنة إلى حليلة السعدية تطلب منها الاتيان بمحمد لكونها تزمع الذهاب به إلى اخوتها في يثرب، فوجد ذلك قبولا من الحبيب، فجاء في معية حليلة مشتاقا إلى أمه التي ولدته، أتى وقد كبر واستوعب يتمه لفقده أبيه وهو في بطنها، وأتى مشتاقا إلى عوالم الحياة داخل مكة لعلها تعوضه بعضا من قساوة حياة البادية التي أمضى فيها سنيه الست، فكان حاله حال القادم من الريف إلى المدينة.

ضمته أمه آمنة إلى صدرها بمحبة وشوق، ونظرت في عينيه المملأى حزنا وقالت: بأبي أنت وأمي يافلذة كبدي يامحمد، ما كان لي أن أفارقك وقد رحل عنا أباك عبدالله من قبل أن تكتحل عيناك بنور الدنيا،

قالت ذلك ودست أنفها في شعره تستروح أنسام زوجها الراحل، زوجها الذي لم تعيش معه سوى أيام عشر كما تفيد أرجح الأقوال، لكنها كانت تكفي لأن يملأ حبه قلبها بحيث لا يدع مكانا لحب رجل آخر، فلم تتزوج آمنة من بعد عبدالله!.

هاجت أشجان آمنة ومحمد بين ذراعيها، ووجه أبيه يحوم حولهما في فضاء غرفة اعتدت الذهاب إلى مكانها خلال الأمسيات، حيث حلت مكان البيت مكتبة مكة العامة، وكنت احرص على الذهاب إلى تلك المكتبة بالرغم من اعتياد جل زملائي من الطلبة السودانيين -ان لم يكن كلهم- إلى مكتبة ابن باز المجاورة للحرم، كنت آنس حقا عندما أكون في ذاك الموضع، حيث يتملكني احساس بأنني استوعب بل احفظ كل مافي المراجع التي اتخيرها من تلك المكتبة، ولم يداخلني الشك البتة بأن بركة المكان وأنواره قد حلت في الأرجاء، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها!.

رحلت آمنة بخيالها إلى البعيد، ويومها كانت فتاة يتمناها كل شاب من مكة زوجا، وعبد الله كان أوسمهم وأجلهم حسبا وأكثرهم فراسة، كيف لا وهو الذي افتداه اباه عبدالمطلب من الذبح بحمر النعم عندما اشارت إليه الأقداح ليكون الذبيح، وكم فرحت آمنة عندما جاءها أباه (وهب) يزف إليها طلب يدها من عبد المطلب لتكون زوجا لابنه عبدالله، وسعادة آمنة كانت عشم ومنى العديد من فتيات مكة بأن يتقدم عبد الله إلى واحدة منهن،

وفي مقدمة أولئك شقيقة ورقة بن نوفل التي خطبته لنفسها يوما فتأبى عليها عبد الله، وعندما مازحها صباح اليوم الذي تزوج فيه من آمنة قائلاً: ألم تكوني يابنت نوفل تودين الزواج مني؟ قالت: "فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة".

لقد رأت من قبل في إهابه نورا، لكن النور اختفى بعد أن تزوج من آمنة! والقصة وردت في كل كتب السيرة ودلائل النبوة، وإن كان البعض يضعفها.

لعمري انه النور الذي تخلل جسدها طوال فترة حملها لابنها محمد، وهاهي ترى ذات النور وتلمسه بيديها وتتحسسه بكل حواسها في جسده الشريف، إنه طفل تفوق وسامته وأبيه، لقد ورث عنه ذات العينين الواسعتين، وإن أشرب بياضهما بشيء من حمرة، وورث ذات شعر أبيه الذي يضرب على منكبيه، وورث ذات الوجه المستدير الأبيض المشرب بحمرة.

أجهشت آمنة بالبكاء، فتساقطت دموعها على وجه الحبيب وجعلت تلوم نفسها وتقول: ما كان لي أن أدعك تعيش قساوة حياة البادية يا حبيبي يا محمد، لقد كان علي أن أبقى معي ولا أركن إلى تقاليد قريش كي أعوضك بحناني عن حنان أبيك الذي لم تره، فنظر إليها بعينين محبتين وهو بين ذراعيها وقال بلغته الفصيحة التي تعلمها في ديار بني سعد: لا عليك يا أمه،

انه قدر الله، وقدره كله خير، البادية وهبتني الكثير الذي يزين رجولتي عندما أشب، وهاهم الناس كما ترينهم لا يصدقون كوني ابن ست واني لكذلك،

وها أنا أقارع من لهم فوت علي عمرا وعلما فافوقهم لغة ومنطقا وحجة، وها أنا بحمد الله صحيح معافى لا تعضلني سقام مكة كسواي ممن نشأ فيها.

فضمته أكثر إلى صدرها وجعلت تمطر وجهه الشريف بقبلاتها، ويا للاحساس الجميل حينما يتلمس الوالدان نجابة ولد لهما، وقد صدق الشاعر حين قال:

نعم الاله على العبادة كثيرة وأجلهن نجابة الأبناء.

نظرت آمنة لابنها وقالت:

يا محمد يا صغيري، اني عليك راضية فارض عني، فما كان من محمد الا أن وضع يديه الصغيرين على خدي أمه وقبلها على جبينها وأوماً برأسه، ثم وضع رأسه في حضن أمه وناما.

وبالجمال الدنيا في أحضان الوالدة، أحس الحبيب بدفئ أنفاس أمه بين بصيلات شعر رأسه، وكانت يداها تتشبثان به في حنان وكأنها تود استعاضة كل سني البعاد، فمال برأسه قليلا إلى الخلف ليتمكن من رؤية وجهها الجميل، فما كان منها الا أن ازدادت به تشبثا وهي نائمة، ولعلها كانت تحس بقرب دنو أجلها يا أحبأب... وشقشقت عصفورة مؤذنة بطلوع الفجر، فانتفض الصبي محمد وانسل برفق من تحت الغطاء، فهو لم يعتد نوما من بعد طلوع الفجر في بادية بني سعد.

وجلس محمد يسترجع رؤية رآها خلال نومه، ونظر الى وجه أمه من بعيد وهي نائمة فتحدرت من عينيه الدموع، فالرؤيا التي رآها تفيد بأن أمه في طريقها إلى مبارحة الدنيا خلال ايام، فخرج إلى ساحة الدار وجلس يبكي ماشاء له الله من بكاء، انه اليتيم الذي لم ير أباه، وعندما قدر له أن يعود إلى أمه هاهي تزمع الرحيل الى حيث رحل والده...

فذاك ابي وأمي ونفسي يارسول الله، ها أنت تقاسي كل ذلك ولم يتجاوز عمرك من السنين ستا! مسح محمد دموعه بكم قميصه وغسل وجهه ثم انتحى جانبا قصيا من الدار وجلس يناجي ربه: ربه، يا قيوم السموات والأرض، يامن خلقتني من العدم، ثم نفخت في من روحك العلية، وكلائتني بعينك التي لاتنام في بادية بني سعد، أدعوك باسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تلطف بأمي بالطيف.

وتصحو أمه آمنة فيسمع صوتها وهي تناديه:

- يامحمد، يامحمد. أين أنت يا فلذة كبدي.

- أنا هنا يا أماه.

فتأتبه وقد أحست وهي الأم بما يكتنفه من حزن.

- قل لي يا بني ماذا يحزنك فاني لا أحتمل أن اراك حزينا، فينظر في وجهها وأوشك أن يحكي لها عن الرؤيا التي رآها، لكنه آثر السكوت وهو يعلم أن الأولى بالرؤيا ان كانت حزينة أن لا يخبر بها أحدا، فقال لأمه:

- لا عليك يا أماه، مابي الا الشوق اليك، فضمته إليها وهي تقول:

- وكيف لأم مثلي ليس لها في الدنيا سواك يا بني؟.

وآمنة كانت قد عقدت العزم بأن تذهب بابنها لزيارة قبر أبيه، ثم ليقضيا زمانا عند أخواله المقيمين في يثرب، فأخبرته بذلك قائلة بأن أخواله في شوق شديد لرؤياه، فيهرز الحبيب رأسه بحزن وينطلق إلى حيث الراحلة، انطلق وهو موقن بأنها الصحبة الأولى والأخيرة مع أمه.

ويصل الحبيب وأمه إلى حيث قبر والده عبدالله، فتجتو آمنة على ركبتيها لتبذل حافة القبر بدموعها وتخاطب صاحب القبر قائلة:

يا ايامحمد، ها هو أبنا قد شب واضحى قرة عين يا عبدالله، ليتك كنت بيننا لتملأ عينيك من جمال اهابه وحسن سمته ونبل طبعه، انه يحمل عنك الكثير يا عبد الله، ثم إنه أوتي جوامع الكلم.

ثم جففت أدمعها وقالت:

كم اشتاقك يا ايامحمد، لقد عاهدت نفسي بأن لا أتبع لرجل من بعدك إلى أن التقيك هناك في السماء يا عبدالله.

فدمعت عينا الحبيب وهو يستمع إلى بوح أمه ومناجاتها لأبيه، فاقترب منها وقال:

- لا تقسي على نفسك يا أماه، ثم أناخا بغيرهما وانطلقا صوب يثرب، وبقي محمد يرمق أمه من طرف خفي ويحدث نفسه قائلا:

كم أنت عظيمة يا أماه، ما أنقى وأنبل الحب الذي خامر فؤادك تجاه أبي يا أيتها الطاهرة، لان كانت الأيام التي عاشها معك أبي معدودة لم تزد عن العشر تذكي مثل هذا الحب الكبير؛ كيف ان كان عاش معك السنوات الطوال؟!

ورفع وجهه الى السماء يناجي ربه:

ربه لك الحمد والشكر بأن جعلتني أبنا لهذه الأم النبيلة.

وتبقى أنظار محمد معلقة بأمه يحصي كل حراكها وسكناتها اذ يعلم يقينا قرب أقول نجمها عن حياته، ويصل

الركب إلى يثرب، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها أخواله، والأخوال دوما أرق قلبا وأذخر حنانا، لقد تعهدوه وافاضوا عليه من الحب الكثير، فتمنى لو أنه عاش بقية عمره بينهم، لكن شئ ما كان يشده إلى مكة، قلبه يقول له بأن الله يدخر له شيئا عظيما هناك.

وتبدأ صحة أمه تعتل منذ وصولها إلى يثرب يوما بعد يوم، فلا يملك أخواله الا استعجالها للعودة إلى مكة حسبانا منهم بأنها حمى يثرب، وتتحرك القافلة وفيها اثنان من الأخوال وآمنة وبصحبتهما الحبيب محمد، ويقول أحد أخويها:

لعلك ياآمنة تتعافين عندما نبارح يثرب وتتنسمن هواء مكة الجاف، فقد اصابتك حمى يثرب، لكن تسوء حال آمنة كلما تقدمت القافلة، وعند وصولهم إلى بقعة بين يثرب ومكة تسمى الأبواء، تطلب منهم آمنة أن ينيخو ناقتها لترتاح قليلا، وهنا أيقن محمد بأنها ساعة الفراق. أنزلها أخواها وهادوها بينهم إلى ظل شجرة لترتاح قليلا، فاسندت ظهرها إلى جذع الشجرة ونادت فلذة كبدها محمد فجاءها الحبيب، وإذا بدموعها تبلل جبينه ووجنتيه، وأحس بجسدها يصطلي بحرارة الحمى، ثم بدأت تبرد رويدا رويدا، وبقيت تقبل وجه ابنها وكتفه ويديه وهو يقبلها،

<https://www.almuhit-adn-news.com/news/1336> بمناسبة ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم -أضواء البيان- نيوز-تنشر-سلسلة-مقالات-

© 2026 شبكة المحيط الإعلامية — جميع الحقوق محفوظة